درس مطالعة ..

للأستاذ محمد علي جمعة الشايب

كان ذلك في الحصة السادسة وقد تسربت أذهان التلاميذ من نوافذ المدرسة وأبوابها إلى منازلهم حيث يهيأ لهم طعام الغداء وحيث ينتظرهم أهلوهم وذووهم — وقد كانت سحابة من التعب تلوح على وجوه التلاميذ تظهر من ثناياها إشراقة خفيفة من الأمل في الانتهاء من اليوم المدرسي وإلقاء هذا العبء الذي أثقل كواهلهم من أول النهار إلى منتصفه تقريبا ؛ فهم لذلك يستحثون عقرب الساعة كما يستحث الناس آخر يوم من رمضان. وكنت أحس أن آذان التلاميذ طامحة إلى موسيقى الجرس الآذن لهم بانتهاء اليوم ومغادرة المدرسة، ولعلهم لو فطنوا لقرأوا في وجهي من بين ثنايا هـذه القوة المقتطعة من الضعف وذلك العزم المأخوذ من الإعياء مثل ما أقرأ في وجوههم أو بعض ما أقرأ.. ولكنه التلميذ الذي يعتقد أن مدرسه من حديد لا يلحقه الكلال أو التعب ! وأن صدر النهار وآخره عنده سواء .. وكان موضوع الدرس هو « السلع الآدمية » من كتاب «المطالعة المختارة» للمدارس الثانوية . وخلاصة الموضوع — ولا أثقل عليك — أن شابين(١) إنجليزيين جلسا في حديقة منزل بإنجلترا وسرحا بصرهما فيما حولهما فوجدا من محاسن الطبيعة ومفاتنها ما يأخذ النفس إعجابا ووجدا الطيور تنتقل من غصن إلى غصن في حرية وانطلاق ؛ بل وجدا كل ما في الحديقة يدعو إلى الحرية والانطلاق . تذاكر الشابان أن الحرية حق طبيعي ، ويجب أن ينعم به الناس في الأرض كما تنعم به الطيور في جو السماء ، وأن شقاء الإنسان مبعثه الإنسان، وما يدعيه الغربيون من مدنية وحضارة ليس إلا ستارا يحجب عن الأعين كثيرا من الرذائل والوحشية . وعرضا لما يجري إذ ذاك من تجارة الرقيق فاعتزم

كان هذا في أوائل القرن الثامن عشر وأحد الشابين هو : « وليم بت » وقد صار رئيسا للوزارة الإنجليزية، والثاني هو . «وليم ويلبرفورس» من أعضاء البرلمان الإنجليزي

كانوا يومئذ يتخذون من شعر أصداغهم كهيئة العقرب . والجواري المتشبهات بهم كن يفعلن ذلك، فإذا نظرت إلى وجه الواحدة منهن أول ما يقع نظرك على أصداغ غلام وشوارب غلام. ومن هنا كثر في لغة الغزل قول الشعراء معقرب الصدغ ومعقرب الأصداغ ولا يكون ذلك على ما يظهر في الغزل بالغلمان الذين لهم على أصداغهم شعر ملوى ومثنى على نفسه بحيث يمثل قرائي عقربا أسود يلسع . أما الجواري فليس لهن عقارب أصداغ، وإنما لهن أفاعي وحيات من ذوائبهن تتلوى على ظهورهن

فلما سمع القاهر مني هـذا الوصف تهلل ونادى بأعلى صوته اسقنا يا غلام على وصف (الغلاميات) فبادر إليه جوار قدهن واحد توهمتهن غلمانا بالقراطق والأقبية : والطرر والأقفيـة ، ومناطق الذهب والفضة . فأخذ الكأس بيده وجعلت أتأمل صفاء جوهر الكأس ولألاء ما فيه ، وحسن أولئك الجواري الغلاميات ، ولمعان الحربة التي بجانبه . ثم التفت القاهر إلي وقال :

قد سمعت كلامك وكأني مشاهد للقوم حسبما وصفت وسرني ما ذكرت وفصلت

ثم أمر لي بجائزة أخذتها على الفور وانصرفت

هذا ما رووه عن (محمد بن علي العبدي) المتخصص في علم الملوك كما شهد له بذلك المؤرخ المسعودي، وقد علمنا من مسامرته للخليفة (القاهر) وما أفاض به من وصف (الغلاميات) واسترساله في هذا الوصف إجابة لرغبته الملحة علمنا منه أن هذا الخليفة لم يكن على ما يحببه له منصب الخلافة من عفة وصلاح وحسن سمت ووقار ؛ اللهم إلا إذا كان هذا من قبيل الدعابة التي أذن بها المأمون، فقد روى أن بعض جلسائه سأله :

هل تأذن لنا يا أمير المؤمنين بالدعابة ، فأجاب :

وهل يطيب العيش إلا بها ؟

(المغربي)

الشابان أن ينتشلا وطنهما من تلك الحأة ويطهرا سمعة الأمة الإنجليزية من جريمة الرق المنكرة .. وقد كانت تجارة الرقيق في ذلك العهد قائمة على قدم وساق، فقد حدث أحد السائحين أنه رأى زنجيين يصيدان السمك في داهومي[1] وقد ملآ منه أسفاطا عدة ؛ فسمعا وقع أقدام خيل مقبلة فتركا ما صاداه وفرا هاربين من تجار الرقيق الأوربيين ، ولكن التجار أدركوهما وسلكوهما مع من معهم من الرقيق

وقد بر الشابان بوعدهما . ونشرا رأيهما في بلادهما ، فصادف نفوسا تكره الظلم ، ولم يمض قليل حتى هبت الأمة الإنجليزية كلها تنادي بالقضاء على هذه التجارة الخاسرة، وكانت إنجلترا أسبق الأمم إلى هذه الدعوة الكريمة ، ولم يكتف الشعب الإنجليزي بذلك بل جاد أبناؤه بأموال طائلة لشراء وطن في غرب إفريقية للعبيد المعتقين ثم تبعتها الأمم الأخرى في ذلك

لم أكد أفرغ من قراءة هذه الفقرات من الدرس حتى رأيت التعب قد طار عن وجوه التلاميذ كما يطير النعاس عن عين المذعور ، وأحسست أن أعصاب التلاميذ المتهدجة من الإرهاق قد شدت من فورة الحماس وأنهم قد صبت فيهم قوة الأسد المتأهب للوثوب، وأخذت أقرأ في وجوه التلاميذ وعيونهم الارتياب في صحة ما ينطوي عليه هذا الكلام، وأخذوا يعارضوني بوابل من الأسئلة ؛ فمن سائل يقول :

إذا كانت إنجلترا حقا هي أول من نادى بإبطال تجارة الرقيق فلماذا هذا الاستعمار المسف ؟ وهل هناك فرق بين الاستعمار والرق في نظر إنجلترا ؟

وتطوع تلميذ بالإجابة عن هذا السؤال قائلا : إن الاستعمار أبشع وأشنع من الرق لأن الرق استرقاق أفراد ولكن الاستعمار استرقاق شعوب ، وقد يعتمد الرقيق على سيده في مأكله وملبسه ومطالب عيشه ولكن الاستعمار يستحوذ على أقوات الشعوب وكسائها بل يمتص دماءها .. والرقيق يشترى بثمن ولكن الاستعمار ليس كذلك .. ولكن كان محرجا حقا ذلك السؤال الآتي :

كيف يشترى الإنجليز وطنا في غرب إفريقية للعبيد المعتقين وهم اليوم يغتصبون الأوطان من الأحرار السودين بل وقبل اليوم بعشرات السنين ؟

وما إن انتهى التلميذ من إلقاء هذا السؤال حتى رمقته بنظرة الإعجاب ونظر التلاميذ إلى ينتظرون الإجابة وعلى شفتهم ابتسامة خبيثة ، وكأنهم فهموا أن الدرس يجب عليه أن يجيب عن كل سؤال حتى ولو كان السؤال لا يستطيع أن يجيب عنه البرلمان الإنجليزي ولا إيدن ولا تشرشل ... وشاءت المصادفات أن تمر في شارع المدرسة هذه الساعة دبابتان إنجليزيتان فتفزع الشارع بصوتهما الأجش الغليظ فينسى التلاميذ الإلحاح في طلب الإجابة، وألقيت على الدبابتين نظرة من نافذة الفصل فوجدتهما تهرولان وفيهما المدافع والجنود ؛ وقد رآهما الأطفال الذين كانوا يلعبون بجمع الحصى من الصحراء المشرفة عليها المدرسة فتسللوا إلى الحارات والبيوت هاربين؛ فحضرت في ذهني صورة الصيادين الذين جمعا السمك في أسفاط عدة فلما رأيا تجار الرقيق تركا الصيد وليا هاربين ؛ فتبينت في ذلك شبها بين الاسترقاق والاستعمار، وعدت ببصري إلى الفصل فإذا هو يكاد يتميز من الغيظ ، فقد كان من أبناء الإسماعيلية الذين ذاقوا ما ذاقوا، فقلت في هدوء ورزانة الدرس التي يصطنعها أحيانا : لعل الله يبعث في إنجلترا شابين آخرين ترتفع صيحتهما للقضاء على الاستعمار وخنق أنفاس الشعوب

ودق الجرس وانصرف التلاميذ وأنا أسأل نفسي عن هذه الضجة التي أثارها هذا الدرس وقد درسته في العام السابق فمر في هدوء وسلام ... ولقد تمنيت لو سمع العالم كله ذلك الدرس الصاخب فقد كان درسا حقا

محمد علي جمعة الشايب

(١) في غرب إفريقيا الوسطى